

معالم استشراف المستقبل في فكر الإمام النورسي

الباحث: نور الدين مولاوي / 1.د. سليمان عبد القادر
كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية
جامعة وهران 1

توطئة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع
هداه واستن بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿الْمَرْءُ غُلِبَتِ الرُّومُ ۖ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ
مِنْ بَعْدٍ عَلَيْهِمْ سَيْغُلُوبٌ ۖ﴾ في بضع سنين^١ لله الأمر من قبل ومن
بعد^٢ ويومئذ يفرح المؤمنون^٣ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز
الرحيم^٤. [الروم: 1..5]

لقد نزلت هذه الآيات المباركات من فواتح سورة الروم المكية على النبي ﷺ وهو في
صراع مرير مع قريش وأحلافها قبل الهجرة، فجاءت آياتها تبشره والمؤمنين بنصر قريب
يمنحه الله جل وعلا للقلة المؤمنة المستضعفة في مكة فكان الوعد بفتح وفرج من الله قريين
وحينها يفرح المؤمنون بنصر الله.

نزلت البشارة بالنصر في مرحلة من أشد المراحل ظلماً وحيفاً بحق الدعوة الإسلامية
الفتية، حيث كانت ساحة الصراع بين الحق والباطل أيامها تشهد دولة وصولاً للكفر، وشدة
في البطش والكيد من المشركين بمن آمن بالله وحده وكفر باللات والعزى.

في هذا الجو المشحون العاصف المكفهر بسطوة الظلم والطغيان يتنزل هذا البيان الرباني ليحكى وقائع صراع ظاهر أمره أنه بعيد في أحداثه ووقائعه عن العصبة المؤمنة في مكة، صراع بين قوتين عظيمتين؛ الفرس والروم.

وليس ببعيد حينها أن يقول ضعاف البصر وقاصري النظر من المشركين: هذا صراع بين كسرى وقيصر، وليس للمسلمين فيه ناقة ولا جمل، فكيف يفرح المؤمنون بنصر الله؟

ولا عجب من هذا الاستفهام الإنكاري فهو مبني في الأساس على نظر كليلى وحكم سطحي ناتج عن فهم عليل لطبيعة الصراع الأزلى بين الحق والباطل، بيد أن المستبصر بنور هذه الآيات الكريمة يدرك أن حديثها عن هزيمة الروم وما يلحقها من أحداث ومستجدات يمثل منعطفاً حاسماً في صراع الإسلام والكفر، ويغذي الأمل بهزيمة الباطل وظهور الحق، في وقت لا تُشام فيه للنصر بارقة.

فالبيان القرآني الكريم ييشر المؤمنين بقرب تبدل موازين القوى وأن الدائرة على الفرس وشيكة، فهزيمة الفرس الوثنيين على أيدي الروم أهل الكتاب تبشر بنصر المسلمين على كفار قريش، وحينها يفرح المؤمنون بنصر الله.

فعلى ضوء هذا التبدل والتحول الحاصلان في مسارات حرب ضروس لم يكن الإسلام طرفاً مباشراً فيها استشراف الخطاب القرآني أفاق المستقبل المشرق الموصل إلى نصر من الله وفتح قريب.

هذا موقف جدير بالتأمل والتدبر، كيف لا وهو يؤسس لمنهج رباني في التطلع للمستقبل، تتجلى معالمه في آيات تنزل على محمد ﷺ في مرحلة عصيبة كان الهم الداخلي للدعوة الإسلامية هو الطاغي على حساب همها الخارجي، فينزل البيان القرآني ليروي صراعاً بين أمتين كافرتين، وأذى المشركين

حينها المسلط على أهل التوحيد قد بلغ مداه، فهو يلاحقه ويلاحق أصحابه، ثم يلوح الوعد الإلهي في هذا الوقت الحرج مبشراً المؤمنين بقرب الخلاص.

أليس هذا قبس من وحي السماء يضيء للمؤمنين دروب الغيب المظلمة ويدفعهم لقراءة المستقبل بمعطيات الحاضر في صورة منهج مكتمل المعالم؟

إنّ فواتح سورة الروم هذه بسياقها الحالي والمقالي هي إشارة قرآنية كريمة تحث المسلمين عموماً وأهل النظر خصوصاً على مطالعة القادم من مسارات معركة الحق والباطل وأخذ العدة لذلك، واستبصار مآلات الأمور بعين الحاضر المستشرف للمستقبل.

فدلالة الآيات السابقة تبين بكل وضوح سبق القرآن الكريم في الحث على تشوف المستقبل قبل أن يكون لمراكز الدراسات والتخابر وجود أو ذكر، وما هذا إلا شيء يسير من عظمة القرآن وعظمة الإسلام، ولا عجب في ذلك فهو دين الله الخاتم الذي ارتضاه لعباده، وآخر بيان من رب السماء إلى الثقلين الجن والإنس.

ولن تصل البشرية إلى ذخائر ونفائس هذا الدين العظيم إلا برجال وأئمة يفقهون آياته ويبينونها للناس ويعملون بمقتضاها، ويجهدون في قراءة واقع الأمة واستشراف مستقبلها على ضوء معالم الكتاب والسنة، وما ذلك على الله بعزيز.

وقد شهدت الساحة الإسلامية في القرن الماضي ثلّة من العلماء والمصلحين العاملين على تجديد ما درس من معالم الدين الحنيف، المبرزين لحقائق الإسلام وخصائص الشريعة من ربانية وواقعية وشمول، فما من مسألة إلا وللشرع فيها حكم علمه من علم وجهله من جهل.

ومن بين هؤلاء العلماء الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، فقد كان لهذا الشيخ الأثر البارز في صحوة المسلمين بعد سقوط الخلافة أوائل القرن العشرين للميلاد، وترك بمواقفه ورسائله في نفوس الدعاة والمصلحين صورة نقية للعالم العامل والمجاهد الصابر الذي لا يستسلم للظلم ولا يلين.

وقد دفعت الصورة الواضحة في الصبر والمقاومة لهذا العالم الجليل دعاة الإصلاح والتغيير في مختلف البلدان الإسلامية إلى الأخذ من رسائله واستبصار الطريق بنورها، فهي تمثل تجربة حياة عامرة بالمقاومة والكفاح، ومعلم ظاهر يعين على فهم الدين والدنيا على حد سواء.

ويمكن القول: إن الإمام بديع الزمان قد ترك للأمة ميراثاً نظرياً غنياً أشرق في رسائله النيرات الموسومة برسائل النور، وميراثاً تطبيقياً عملياً تجسد في نظرته للواقع الذي عاش فيه، وتجلت صورته بشكل خاص في مواقفه الصلبة وجهاده المستميت في سبيل الدفاع عن عقيدة الإسلام، فلا عجب أن تكون مسيرة النورسي رحمه الله عامرةً بصور المقاومة والإباء.

فالإمام بديع الزمان يمثل أنموذجاً صافياً للعالم العامل والمجاهد العابد - نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله - الذي جمع بين القول والعمل في زمن الفتنة والبلاء، فلا ضير أن تكون سيرته ومسيرته مدرسة لرجال الأمة يتعلمون فيها فقه التمكين لدين الله في الأرض.

ولا أدعي في هذا المقام سعة الإطلاع على ميراث هذا العالم الفذ أو التقصي لجميع مواقفه، بيد أنني لمحت من خلال النظر في بعض رسائله حرصه الشديد على ربط واقع الأمة بنصوص الوحي من كتاب وسنة، وتلمس الدواء الشافي والعلاج الكافي من صيدلية القرآن، فكم يبين رحمه الله في إشعاعاته من سبيل نجاة وطريق هداية يوصل سالكيه من المسلمين إلى الوحدة المنشودة والنصر المبين ما ساروا على نور القرآن وهدى السنة.

ولعل الجانب الأبرز الذي شدني في كتابات الإمام بديع الزمان رحمه الله ورسائله هو استشرافه لمستقبل الأمة من خلال نور الوحي، وسعيه لقراءة الواقع السياسي للمجتمع المسلم بعيون الشرع، واجتهاده في فهم حال المسلمين ومآلهم باستعمال العقل والنقل.

فتوقع مسارات الصراع بالارتكاز على نصوص الوحي أصل أصيل في إدارة المعركة بين الحق والباطل، هذا ما يقرره النورسي رحمه الله في كتاباته وعلى أساسه بنى مواقفه من قضايا مجتمعه.

والسؤال المطروح بعد هذا العرض هو: ما حقيقة الاستشراف، وما هي معالمه في فكر النورسي رحمه الله؟

وتحتم الإجابة على هذا السؤال الوقوف على حقيقة الاستشراف كعلم مستقل، ثم بعد ذلك بيان البعد الديني في مواقف النورسي السياسية، وإظهار أبرز معالم الاستشراف عند هذا الإمام، وسيكون السير في هذا المقال المتواضع والمعنون بـ "معالم استشراف المستقبل في فكر الإمام النورسي" وفق المحاور التالية مع مراعاة الاختصار ولاعتصار قدر الإمكان والله الموفق:

-المحور الأول: التعريف بعلم الاستشراف.

-المحور الثاني: النورسي والسياسة.

-المحور الثالث: المعالم الشرعية في استشراف النورسي لمستقبل الأمة.

ثم في الأخير خاتمة تبين أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث، والله الموفق وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

-المحور الأول: التعريف بعلم الاستشراف.

إنّ طبيعة هذا البحث تستوجب في المقام الأول الإلمام بعنصرين أساسيين؛ العنصر الأول هو حقيقة الاستشراف المستقبلي وما المقصود منه وما هي آلياته؟

والعنصر الثاني هو موقف المسلمين من الاستشراف كعلم، وما هي آليات استثماره في فهم التقلبات السياسية والاجتماعية الهائلة التي تعصف بالأمة الإسلامية في هذا العصر؟

- أولاً: ما هو الاستشراف المستقبلي؟

لقد حرص القادة والساسة في الغابر والحاضر على قراءة واقعهم بشكل صحيح، وفهمه فهماً دقيقاً، وذلك لتحقيق النصر وتفادي الخسارة قدر الإمكان في زمن الحرب والسلام على حد سواء.

وفي سبيل الوصول إلى غايتهم المنشودة ركبوا الصعب الذلول، وسلكوا سبل الرشد والغواية لاستشراف مستقبلهم ومعرفة المخبوء من الغيب، وذلك حتى يستعدوا لكل نازلة قبل حلولها ولكل حادثة قبل أوانها، فينبون خططهم سلفاً وحرباً على أسس تلك التوقعات، وفي هذا مشهد متكرر من قصة صراع الإنسان مع قدره المخبوء.

ولأجل هذا الغرض شيدت مراكز البحوث والدراسات التي تعنى بالمستقبل، وظهرت دوائر التخابر السرية والعلنية في داخل البلدان وخارجها، والباعث على هذا كله هو استشراف المستقبل والسعي للتأثير فيه، حتى أصبح هذا الفن على مرّ الزمان علماً مستقلاً بذاته يدرّس في الجامعات وتألّف فيه الرسائل ومشاريع التخرج.

وقد اهتم الغرب بعلم المستقبل منذ منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، والغاية من ذلك عسكرية بحتة، وكان صاحب السبق هو مركز (راند) -اختصار لكلمة «البحث والتطوير» بالانجليزية- الذي انبثق عن شركة (إيركرافت)، وبدعم من مؤسسة (فورد) انطلقت مسيرة مؤسسة (راند) عام 1946م ليحذو بعدها كثير من المؤسسات المختصة في علم المستقبل واستشرافه حتى وصل عددها إلى 600 مؤسسة تهتم بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى نهاية عام 1976م، كما أعدت الجامعات الأمريكية 415 مقرا دراسيا في الدراسات المستقبلية موزعة على 18 ولاية أمريكية، وأما السويد فقد انفردت بتأسيس وزارة للمستقبل عام 1973م، التابعة لرئاسة الوزراء.(1)

هذا الاهتمام المتنامي والمحموم بالمستقبل وبالعلم الذي يدرس آليات التحكم فيه يحتم علينا في البداية الوقوف على تعريف الاستشراف وبيان المقصود منه باعتباره من المصطلحات العلمية الحديثة، ولا بأس من استهلال الكلام بتلمس معناه في اللغة والاصطلاح.

أولا: ما هو علم الاستشراف ؟

الاستشراف مشتق من مادة (شرف) والألف والسين فيه للطلب، ومعناها في اللغة العلو، والمجد، والحسب، والمكان العالي، ومنه قولهم: استشرفت الشيء إذا رفعت بصرك تنظر إليه ويسطت كفك فوق حاجبك.(2)

فالاستشراف بمعناه اللغوي هو محاولة التعرف على شيء قادم مترقب الوصول، أو السعي لمعرفة متوقع لم يحدث بعد.

وأما في الاصطلاح فليس من السهل الوقوف على تعريف جامع مانع للاستشراف، وهذا راجع بالأساس لحدثة المصطلح نفسه في دنيا العلوم، ومع

هذا فقد حاول بعض الباحثين صياغة تعريف للاستشراف المستقبلي يقربه للدارسين والباحثين على حد سواء.

فمنهم من عرّفه بأنّه: التطلع إلى المستقبل من خلال دراسة الماضي وفهم الحاضر والسنن الفاعلة فيهما.(3)

وعرّف أيضاً في بعض الأبحاث المعاصر بأنّه: "اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صوغ مجموعة من التوقعات المشروطة التي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات، في فترة زمنية مقبلة."(4)

وهناك تعاريف أخرى غير ما مرّ تبين هذا العلم، وهي في مجملها لا تزال وليدة البحث القريب، وهذا أحد أسباب تعددها وعدم التزامها بضوابط الحدود المعروفة، فلا يسلم تعريف منها من اعتراض أو نقد، وليس هذا مراد بحثنا، بل ما يهمنا في هذا المقام هو روافد الاستشراف المستقبلي والمعالم التي يستند إليها في تحديد الرؤى الاستباقية.

وهذه المعالم نابعة في الغالب من ثقافة الشخص المستشرف وتصوراته، فلا غرابة أن يكون في رؤساء الدول والقادة في البلاد الإسلامية وغيرها في هذا العصر ناهيك عن العصور الغابرة من يلجأ إلى السحرة والكهّان والعرافين لكشف الغيب ومعرفة المجهول الذي يترصد بعروشهم.

ولا دخل لهذا النوع من الاستشراف في بحثنا، لأنّه منهج مبني على الخرافة والدجل، وأمّا الذي نسعى لبيانّه فهو المنهج المبني على أسس علمية صحيحة، كاستقراء السنن الإلهية والكونية في ظهور الأمم وأفولها، ومثله ما بني على سنة التدافع الأزلية بين الحق والباطل.(5)

ولعل أمس المناهج بهذا البحث ما كان منها مستشرفاً للمستقبل على ضوء نصوص الكتب المقدسة في الديانات السماوية المختلفة، وهو منهج يحاول تنزيل النبوءات القديمة الموجودة في النص المقدس على واقع الناس.

وقد شهد هذا المنهج تطوراً ملحوظاً في عصرنا حتى أصبح علماً مستقلاً بذاته، اختلط فيه الخبر الغيبي بواقع الناس المعيش، وقد اصطلح على تسمية هذا العلم بـ"علم آخر الزمان"، ويسمى باللغة الأجنبية "Eschatologie"، ويهتم هذا النوع من العلوم بنصوص الأخبار الغيبية في الكتب المقدسة وصور تنزيلها على أحداث زمن بعينه، فهو علم يبحث في مدى تحقق النبوءات السابقة المنصوص عليها في القرآن والتوراة والإنجيل، ويستشرف مستقبل الأمم من خلالها. (6)

ثانياً: مكانة علم الاستشراف عند المسلمين.

إنّ منهج تنزيل النصوص المخبرة بحوادث آخر الزمان على واقع الناس موجود عند المسلمين والنصارى واليهود على حد سواء، فالنصّ المقدس في الديانات الثلاثة يحمل في طياته أخبار عن حوادث في مستقبل الأيام وأمارات حدوثها.

وقد كان هذا النوع من النصوص باعثاً لأصحاب هذه الديانات للبحث في مدى تطابق الخبر الموجود في النصّ المقدس مع الواقع الذي يعيشون فيه، ودفعهم للتطلع ومحاولة استبصار المصير الذي يمكن أن ينتهوا إليه. (7)

وقد اختص الله المسلمين بمناهج في الفهم والاستنباط لا توجد عند غيرهم من أصحاب الشرائع، والبيئة على هذه الدعوى علم أصول الفقه، فهو

علم تفرد المسلمون به دون باقي الديانات، ومن صور العبقرية فيه أنهم يبنون الأحكام بالنظر إلى المآلات، وهذا نوع لطيف من استشراف الأحكام قبل وقوعها، ووجوده في الفقه دليل مشروعيته.

هذا من جهة المشروعية عموماً أمّا على وجه التحديد فهناك تلازم لا يخفى بين الاستشراف والتخطيط الدال في معناه اللغوي على الحال والأمر والخطب. (8)

وقد عرف التخطيط في الاصطلاح بأنه: وضع خطة مدروسة للنواحي الاقتصادية والتعليمية والإنتاجية. (9)

وهذا بعينه صورة من صور التوكل الجائز بل المطلوب في الشرع، وقد جاء في الخبر المروي بأنّ النبي ﷺ قال للأعرابي في شأن الناقة: "اعقلها وتوكل". (10)

فالخوف من ذهاب الناقة وانفلاتها يجعل حقيقة التوكل في عقلها وإحكام قيدها، وفي هذا استشراف لمآل حالها إذا ترك حبلها على غاربها.

وبما أنّ هذا العلم حادث ولا تزال عناصره تحت البحث والتمحيص في صورة رسائل وبحوث في مختلف الجامعات ومراكز الدراسات في عالمنا الإسلامي، منها ما يهتم بعلم الاستشراف في السنة النبوية ومنها ما يدرس أهمية الاستشراف في واقع الدعوة ومستقبلها، والعمدة في ذلك كله على استخراج مكنون الميراث الفقهي الهائل وبيان صور استشراف المستقبل في فقه الأئمة الأعلام، وهو كثير ومتنوع من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى يوم الناس هذا.

ويمثل فقه السلف لأحاديث الفتن والملاحم المبتوتة في مصنفات الحديث النبوي الشريف خير شاهد على منهجهم في استشراف المستقبل من خلال نصوص الوحي، والمطية في ذلك الاجتهاد المنضبط بالكتاب والسنة.

ويمكن لهذا البحث أن يكون محاولة تأصيل لهذا العلم في الشريعة الإسلامية، فهو يتناول صوراً من اجتهاد النورسي في الاستشراف، وذلك من خلال بيان معالمه في فكره وصور تنزيله على واقعه.

فالتأظر في رسائل النور يجد منهج الاستشراف والتطلع لمصير الأمة الإسلامية واضحاً وجلياً في فكر الإمام النورسي، ويلمس بناء هذا المنهج على آي القرآن ونصوص السنة النبوية، ويرى لكثير من الأحاديث والأخبار النبوية الأثر البالغ في رسم مواقفه السياسية، وسنحاول في القادم من الصفحات كشف النقاب عن منهجه وبيان الأصل الشرعي للمعالم التي ارتكز عليها في رسم الرؤية المستقبلية لصراعه مع الكفر والإلحاد ولكن قبل هذا لا مناص من بيان موقف النورسي من السياسة وعلاقته بها حسب الظروف والجو العام الذي عاش فيه.

المطلب الثاني: النورسي والسياسة.

ولد بديع الزمان بديع النورسي سنة 1293 هـ / 1876م بقرية نورس، حفظ القرآن صغيراً وجلس للتعليم على يد عدد من المشايخ أبرزهم أخوه الملا عبد الله، كما أخذ عن الشيخ أمين أفندي بقرية تاغ، وكان طوال فترة حياة التلمذة كثير التحصيل والحفظ وكثير المناظرة لمن يلقاه من العلماء حتى بز الأقران، وكان كما يقول عن نفسه: كنت أتغلب عليهم بفضل العناية الربانية. (11)

ولما شب صار جهاد الكلمة والقلم ديدنه، فدافع بلسانه وقلمه عن قضايا أمته، ولم يغفل رحمه الله الجهاد بالسيف، فقد قاتل الروس وعصابات الأرمن في مواطن كثيرة، وله معهم مواقع مشهودة، فجمع بين جهاد اللسان وجهاد السنان، وكان كما قال حسان رضي الله عنه:

فنحكم بالقوافي من هجانا *** ونضرب حين تختلط الدماء. (12)

فلم يفتر عن جهاد الكلمة ضد الظلمة من حكام بلاده إلى أن مات رحمه الله سنة 1960 بعد حياة عامرة بالتضحية والمقاومة تركت فصولها أثراً قوياً في روح من عرفوه أو قرؤوا عنه .(13)

فلا تكاد تجد مصلحاً أو داعيةً في زماننا غسل يديه من السياسة وتركها وراءه ظهيراً إلا استشهد على سلامة موقفه بمقولة الإمام بديع الزمان النورسي رحمه الله: "أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة".(14)

حتى غدت هذه الكلمة حجة من لا يؤمن بممارسة السياسة من الدعاة والمصلحين، وأصبحت مرادفة للكلمة العلمانية لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، وهذا الإدعاء لا يخلو من غرابة، وبعده عن الحقيقة ظاهر، وكفي في الرد عليه أن من معاني الدين في اللغة السياسة.(15)

والتأظر في سيرة هذا الشيخ الجليل يلحظ أن معظم صولاته وجولاته كان في ميادين السياسة بمفهومها الواسع؛ المتمثل في السعي للإصلاح والبناء، فمنذ أن شعر بالخطر الذي يهدد الأمة في مقاومتها امتشق حسامه للذب عن حياض الدين، فناظر العلماء لبيان مراد الشرع في كثير من القضايا بالحجة والبرهان، وجاهد الروس الغاصبين بالسلاح والسنان حين كان الواجب يقتضي ذلك، وناضل داخل مؤسسات الخلافة لإصلاحها من الداخل، فشغل المناصب العلية في هيكلها، وذلك حين كان الأمل في الإصلاح من الداخل ممكناً، ولما استعص الأمر بسقوط الخلافة ترك بديع الزمان السياسة بالمفهوم الضيق وانتقل إلى فضاء أوسع، حيث عاش في رحاب القرآن يسوس أفكار الناس ويصلح ما عوج من فطرتهم بهدي النور المبين.(16)

فالإمام النورسي لم يهجر الواقع ولم يلن ولم يتخل، ولكنه قام بعملية التفاف على المفاصل الخلقية والهوان الحضاري، لقد تحول من حلبة السياسة

المحاطة بسياج الأعراف المحكومة بنزوات النخب المتصارعة إلى أرض الواقع
الفسيح المطلق من القيود والحدود.(17)

والناظر إلى سيرة هذا الإمام في مرحلة سعيد الجديد كما لُقّب نفسه يلحظ
أنّه رحمه الله تعامل مع السياسية بالمذهب القائل: من السياسة ترك السياسة.

وقد قسم الدكتور أحمد داوود أغلو الحياة السياسية لبديع الزمان إلى
ثلاث مراحل(18):

المرحلة الأولى وتشمل الربع الأول من القرن العشرين حتى سقوط الخلافة
ويتجلى فيها بوضوح دور سعيد القديم السياسي والمقاوم الذي يسعى لإصلاح
الخلافة المتهالكة من الداخل، فقد كان نشطاً يبحث عن الحلول لمشاكل الأمة
العويصة، وقدم أفكاراً سياسية واجتماعية تساعد على تفعيل الوضع العام للعالم
الإسلامي، ويشهد لهذه المرحلة كتاباته قبل المشروطة وبعدها.

وأما المرحلة الثانية فتتمدد من سقوط الخلافة إلى نهاية الحرب العالمية
الثانية، وفيها ظهر النورسي باسم سعيد الجديد المشتغل كلياً بالقرآن ويذر ما
سواه، لقد أيقن هذا الإمام أنّ حال الأمة يوجب تخندق العلماء والمصلحين
حول قيم الأمة يصدون عنها طوفان العلمانية الداهم، فكان هذا الانسحاب
التكتيكي من ساحة المعركة استعداداً داخلياً للمعارك القادمة، فالقضية بين
الإسلام والإلحاد لا تحسم في معركة بل في حرب لم تضع أوزارها بعد.

وقد بين هذا التوجه الجديد في رسائله حيث قال: "إنّ خدمة القرآن
الكريم هي التي منعني بشدة من عالم السياسة بل أنستني حتى التفكير
فيها....لقد قال أحدهم مثل سعيد القديم:

ونحن أناس لا توسط بيننا *** لنا الصدر دون العالمين أو القبر.(19)

إنّما هي خدمة القرآن تمنعني من التفكير في الحياة الاجتماعية والسياسية." (20)

المرحلة الثالثة وهي الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الربع الأخير من القرن العشرين، وتميزت هذه المرحلة بظهور الصراع الفكري ونشأة حركات التحرر ومقاومة الاستعمار، وفيها استقلت الكثير من الدول الإسلامية، وبدأت حرية الدين والفكر بالتوسع، وعلى خلاف المرحلة الثانية التي ابتعد فيها النورسي عن الأحداث والتطورات السياسية فقد بدأ يبدي قناعته المتعلقة بقضايا العالم الإسلامي ومكانة تركيا في العالم. (21)

ويمكن القول: أنّ النورسي رحمه الله سار على طريق الإصلاح بواقعية ومرحلية، وكان مقررّاً لديه أنّ السياسة السليمة المنتجة تحتاج إلى شروط وضوابط محددة، وممارستها مرهونة بمدى تحقق هذه الشروط وتوفر هذه الضوابط، فقدر رحمه الله الخطو قبل وضع الرجل، وعلم من بعده درساً في التعامل مع واقعهم بنظرة قرآنية، تجنب الأمة الضياع والتهيه في دهاليز السياسة الاحتياالية المظلمة الآسنة، فالسياسة بلا خلق نجاسة واجبة التطهير.

-المطلب الثالث: المعالم الشرعية في استشراف النورسي لمستقبل الأمة.

لقد عاش النورسي حياته وهو يؤمن بأنّ المستقبل لهذا الدين، وأنّ النصر آتٍ لا محالة، فكم صدع بهذه العقيدة عالياً مدوياً، فزلزلت كلماتها عروش الباطل والطغيان، وصكت آذان المشككين والمرتدين عن دين الله القويم.

وقد سجل التاريخ له ذلك وهو يلقي خطبته الشامية بلسان عربي مبين من فوق منبر جامع بني أمية بدمشق حيث قال: "إنّ المستقبل سيكون للإسلام وللإسلام وحده، وأنّ الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان لذا فعلينا بالرضا بالقدر الإلهي وبما قسمه الله لنا إذ لنا مستقبل زاهر وللأجانب ماض مشوش." (22)

إنّ تفاؤل النورسي وتأكيدَه على مستقبل زاهر منظر للإسلام ليس نابعاً من تحليل سياسي مجرد يرتكز على عبقرية صاحبه في قراءة الأرقام والبيانات، ولم يكن وليد أجهزة مخبرات ترفع إليه التقارير ليبنى عليها نظرتَه للغد، بل كان استشرافه للمستقبل نابعاً من عقيدته القرآنية ومن إيمانه الراسخ برسالة الإسلام.

وهذا هو الملموس من مسيرته وطريقة تعاويه مع الواقع الذي عاش فيه، إذ نصب في طريقه معالم بارزة يتشوف بها حال الأمة ومآلها على ضوء الشريعة الغراء.

إنّها منارات نور وهداية، انتصبت شواهد باسقات، تهدي إلى طريق الحق وسبل السلام في دياجير الفتن والضلال، فما هي هذه المعالم التي حفظت فكر النورسي من الزيف والضلال وهو يستشرف المستقبل؟

المعلم الأول: القرآن الكريم.

لقد عاش النورسي بالقرآن وللقرآن، يستنير بمصباحه الذي لا يخبو سناه، فكشف له مآلات الصراع بين الحق والباطل، وجعل أحكامه وعظاته دستوراً لحياته، فأيقن حتمية النصر وأنّ العاقبة للمتقين، فما شك ولا هان ولا ضعف، ولم تزد سنوات المقاومة والكفاح إلا يقيناً بأنّ جند الله هم الغالبون، واستشراف للبشرية العيش في مدنية الإسلام الحقّة، لا تلك الزائفة المبنية على إنكار الإيمان ومحاربه حيث قال: "كما أنّ الشتاء يعقبه الربيع والليل يخلفه النهار فسيكون للبشرية ربيع ونهار إن شاء الله، ولكم أن تنتظروا من الرحمة الإلهية شروق شمس حقيقة الإسلام، فتراها المدنية الحقيقية في ظل سلام عام شامل." (23)

ومن صور تشوفه مستقبل الأمة بمعلم كتاب رب العلمين بيانه الحكمة الإلهية في تكرار القرآن لبعض الجمل والعظات، فكثير من الآيات تحمل معنى واحد وتروي القصة نفسها من زوايا مختلفة، فما هو المغزى من هذا التكرار؟

يقول النورسي في الإجابة على هذا السؤال: "إن تكرار الحاجة يستلزم التكرار، هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين. فهو يكرر جملاً تملك ألوف النتائج، ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حد لها، وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقريبه في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الأجزاء، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلا من هذا العالم الفاني." (24)

فالجمل المكررة في القرآن تملك ألوف النتائج، وهي موجهة لعدد لا يحصى من الناس في كل زمان ومكان، والقرآن يقدم من خلال نتائجها إرشادات وعظات لأهل كل زمان ومكان حسب حاجتهم، فقصة موسى وفرعون هي جملة مكررة لصراع بني من أولي العزم مع فرعون هالك، ونتائجها المتعددة إرشادات عظيمة لمن يعيش صور من هذا الصراع في كل عصر ومصر، ففيها عظات لمن يزرع تحت نير المستبدين والغاصبين، وفيها دروس في التعامل مع الطغاة الظالمين، فكل زمان له فرعون.

ولهذا ذكر القرآن هذه القصة في مواضع مختلفة ليعلم دعاة الحق التخطيط الصحيح في مواجهة تجبر وتكبر الفراعنة، وكيف تدار المعركة معهم، وكيف تبنى نتائجها المرجوة باستشراف معلم قصة موسى عليه وعلى نبينا السلام وفرعون.

هذا غيض من فيض في استشرافه رحمه الله مآلات الصراع بمعلم القرآن، ولا شك أنّ فيه لمن طلب الاستزادة ذخائر ونفائس تفيد رجالة الأمة في إدارة صراع الحق والباطل في الحال والاستقبال.

المعلم الثاني: الحديث النبوي الشريف .

لقد كان لأحاديث النبي صلى الله عليه و سلم الأثر البالغ في قراءة النورسي لكثير من الأحداث السياسية في زمانه، وعلى الخصوص ما كان منها في باب الفتن والملامح،

وما كلامه عن فتنة الدجال والسفياي وما يصاحبهما من فتن إلا محاولة منه لقراءة الواقع والمستقبل على ضوء تلك الأحاديث. (25)

والملاحظ أنّ النورسي قد مال في تفسير تلك النصوص إلى تأويل ظاهرها ليتناسب مع الواقع الذي عاش فيه، وليستمد منها إشارات تعينه على ترتيب خطواته المستقبلية.

فعند كلامه عن فتنة الدجال واستعراضه للأخبار التي بينت أنّ أكثر أتباعه في آخر الزمان من اليهود يوضح النورسي إسقاطه للخبر على بلد بعينه فيقول: "إن جزءاً من تأويل هذه الرواية قد تحقق في روسيا إذ اليهود الذين قاسوا مظلماً بيد الحكومات كلها تجمعوا بكثرة في روسيا لأجل أن ينتقموا من الدول والشعوب فكانت لتروسكي اليهودي اليد الطولى في تأسيس منظمة الشيوعية وأظهروا بهذا أنهم منظمة من منظمات الدجال الكبير ومنفذوا أعماله". (26)

وعند تعرضه لفتنة يأجوج ومأجوج حاول رحمه الله قراءة النص الخيري الذي بين أوصاف هذا الجنس المهلك للحرث والنسل بعين العصر، ومن ثمّ استشرّف بمعطيات زمانه المقصود من الحديث الشريف وأسقطه على شعوب بعينها فقال: "أخصب مرتع للفكر الفوضوي الإرهابي هو الأماكن المزدحمة بالمظلومين والقبائل البعيدة عن الحضارة والحكومة والدولة والتي اعتادت النهب والإغارة فهذه الشروط تنطبق على قبائل المانجور والمغول..." (27)

وفي مكان آخر أظهر النورسي بجلاء خطه السياسي المستشرّف بمعالم الكتاب والسنة وذلك حين اختار ترك السياسة في مرحلة من المراحل لاعتقاده أنّ حاكم تركيا كمال أتاتورك هو السفياي الذي لا تنفع معه المقاومة بنص الحديث فاختر تأجيل الصراع إلى وقته مستبصراً بالأحاديث التي بينت صفة السفياي، يقول النورسي مبيناً منهجه: "ولكنني عندما لاحظت أن قسماً مما جاء في الأخبار في المتن الأصلي لرسالة الشعاع الخامس ينطبق على شخص شاهده هناك فقد اضطرت إلى

ترك الوظائف المهمة إذ اقتضت بأن من المستحيل التفاهم مع هذا الشخص أو التعامل معه أو الوقوف أمامه." (28)

وكان لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام أثر في أسلوبه رحمه الله مع الموافق والمخالف، وعلى هديها كان يحدد مسارات الولاء والبراء، فهي تمثل الجانب العملي من السنة النبوية.

فقد شكلت السيرة النبوية لنورسي مرجع مدافعة وإمداد، ووجد فيها مجالاً تواجهياً ظل يكتسح منها حتى زكت نفسه وشقت لطائفها. (29)

ولهذا كان لشخص النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته حضور قوي في ذهن النورسي لم يغيب عنه حتى في أصعب الظروف التي مرّ بها، فها هو في الأسر يرفض القيام لقائد روسي كبير، ويحاكم لأجل ذلك، وعند الأمر بإعدامه طلب أن يصلي ركعتين تأسيماً بالصحابي الجليل خباب بن عدي رضي الله عنه حين حانت ساعة قتله بيد قريش، ولكن الله حفظه. (30)

الخاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن القول في ضوء ما مر معنا: إن فكر الإمام النورسي بروافده المتنوعة من علوم شرعية وغيرها ووحى واقع عاشه وخبره قد جعله يتفرد بين بني زمانه بمنهج استشرافي لتشوف واقع الأمة ومآلاته، فأسس لمنهج التطلع والقراءة الصحيحة لمستقبل الأمة في صراعها المرير والطويل مع أعدائها على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

فأصل لمنهج سوي جبل عليه كل عاقل لبيب، وما أجمل أبيات الشاعر العباسي محمود بن الحسن الوراق في هذا المعنى وقد صور أسلوب العاقل اللبيب قبل أن تدهمه الملمات فقال:

يمثل ذو اللب في لبه *** مصائبه قبل أن تنزلا.

فإن نزلت بغتة لم ترعه *** لما كان في قلبه مثلاً. (31)

فالمسلمون اليوم في أمس الحاجة لمن يستشرف مستقبلهم على ضوء الكتاب والسنة، فيتزودون لكل مرحلة بزادها، ويستعدون للخطوب قبل حلولها، ليستعيدوا بذلك ما سلب منهم، ويكتب للأمة النصر، فتأخذ الحق من أعدائها، وحاديها في ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿ [الأنبياء: 105، 106]

الهوامش

- 1- استشراف المستقبل من منظور شرعي، جهاد العايش، مقال منشور بموقع مجلة الفرقان الكويتية يوم: 12 مايو 2013م، <http://www.al-forqan.net>
 - 2- انظر لسان العرب والقاموس المحيط، مادة شرف.
 - 3- أثر الاستشراف والتخطيط المستقبلي في العلم والتعليم في ضوء السنة النبوية، طه محمد فارس، ص: 5.
 - 4- انظر صور المستقبل العربي، ص: 23، إبراهيم سعد الدين، وآخرون، مركز دراسات الوحدة العربية، والدراسات المستقبلية الإشكاليات والآفاق، مقال لعواطف عبد الرحمن، (مجلة عالم الفكر ص14، العدد (4)، 1988م).
 - 5- انظر السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد ا لكريم زيدان.
- 6-Publié avec le soutien du CNL" Eschatologie occidentale "
- Jacob TAUBES voir
- 7- ومن الكتب التي بينت هذا الأسلوب المتبع عند اليهود والنصارى في قراءة أحداث بدايات الألفية الثالثة على ضوء أخبار التوراة والإنجيل على سبيل الذكر لا الحصر كتاب "حمى سنة ألفين" لصاحبه عبد العزيز مصطفى كامل، الناشر: دار السليم ، الطبعة: الثانية، 1420هـ.
 - 8- انظر لسان العرب مادة خطط.
 - 9- المعجم الوسيط، 1/244.
 - 10- رواه الترمذي عن أنس بن مالك، وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، سنن الترمذي تحقيق إبراهيم عطوه عوط ، كتاب صفة القيامة، رقم: 2517، 668/4 ، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، 1969م.
 - 11- الشعاعات، ص: 542.
 - 12- ديوان حسان بن ثابت، ص: 20، دار الكتب العلمية ط2 1994 بيروت لبنان.
 - 13- انظر السيرة الذاتية لبديع الزمان النورسي، إحسان قاسم الصالحي.
 - 14- الإخلاص والأخوة ترجمة إحسان قاسم الصالحي مطبعة الشعبي بغداد.
 - 15- لسان العرب لابن منظور، مادة دين.

- 16- ينظر السيرة المختصرة لبديع الزمان النورسي رحمه الله إعداد إحسان قاسم الصالحي.
- 17-النورسي في رحاب القرآن الدكتور سليمان عشارتي، ص: 267
- 18- انظر سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي، أحمد داوود أغلو، موقع النور للدراسات الحضارية والفكرية.
- 19- البيت لأبي فراس الحمداني، ديوان أبي فراس الحمداني، ص: 93، المطبعة الأدبية بيروت. 1910
- 20- المکتوبات، المکتوب الثالث عشر، ص: 54
- 21- انظر سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي موقع النور للدراسات الحضارية والفكرية.
- 22- صقيل الإسلام، ص: 492.
- 23- نفسه.
- 24- الشعاعات، ص: 306.
- 25- نفسه، ص: 112.
- 26- المرجع السابق.
- 27- المرجع نفسه.
- المرجع نفسه، ص: 28.420
- النورسي في رحاب القرآن عشارتي سليمان، ص: 29,312
- انظر القصة بكاملها في السيرة المختصرة لبديع الزمان النورسي رحمه الله 30 إعداد إحسان قاسم الصالحي، ص: 35.
- طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص: 367، دار المعارف، ط3 القاهرة. 31

